

الحلم تحقيق رغبة

لو أن رجلا ضرب في منعطف ضيق ثم إذا هو يستوى فوق قمة عالية تشعب منها الطرق ويتشر الأفق ثريا في كل اتجاه ، لكان من الأوفق للرجل أن يتمهل برهة ليتدبر في نفسه ما هي مقبلة عليه . وحالنا وحال هذا الرجل سواء ، بعد أن استتب لنا أول تفسير فسر به حلم ما . فنحن نقف ونور الكشف المباغت يغمرنا . فالحلم ليس بالأصوات الناشزة تنبعث من مزف قرعته قوة خارجة لا يد الموسيقى ، والحلم ليس خلوا من المعنى ولا فاسده ، ولا هو يدعنا نفترض أن فريقا من أفكارنا المختزنة ينام بينما يصحوفريق . إنه ظاهرة نفسية صادقة كأصدق ما تكون الظاهرة النفسية : إنه تحقيق رغبة ، والطريق موصول بينه وبين ما نعقل من نشاطنا النفسى فى يقظتنا ، وبنائوه من صنع نشاط ذهنى على كثير من التعقيد . بيد أننا لا نكاد نأخذ فى الابتهاج لهذا الكشف حتى يهجم علينا سيل من الأسئلة : فإذا كان الحلم يمثل رغبة محققة - كما يحدثنا به التفسير - فما مأتى الصورة العجيبة التى يتخذها هذا التحقيق ؟ أى تغيير ينال أفكار الحلم قبل أن تحول إلى الحلم الظاهر الذى نذكره فى يقظتنا ؟ كيف يقع هذا التغيير ؟ من أين تأتى المادة التى تحول إلى حلم ؟ وما أصل الخصائص الكثيرة التى نستطيع ملاحظتها فى أفكار الحلم - كقبولها التناقض مثلا ؟ (أنظر مثال القدر المستعارة ص ١٤٧) . هل يستطيع الحلم أن يعلمنا جديدا عن عملياتنا النفسية الباطنة ؟ هل يستطيع محتواه أن يصحح آراء كنا نعتقد صدقها فى أثناء النهار ؟ إنى أرى أن ندع جانبا جميع هذه الأسئلة فى الوقت الحاضر ، وأن نتقدم ببخشنا فى طريق واحدة : لقد رأينا أن الحلم يحقق رغبة ، فواجبنا الآن هو أن نبحث هل هذه خاصة مشتركة بين الأحلام جميعا أو هو اتفاق عرض فى محتوى ذلك الحلم الجزئى الذى بدأنا به تحليلنا (حلم حقنة إرما) . فلقد تقبل التسليم بأن لكل حلم معناه وقيمه النفسية ، ولكن من الواجب مع ذلك أن نترك مكانا لإمكان تفاوت هذا المعنى بتفاوت الأحلام . فحللنا الأول قد حقق رغبة ، ولكن قد يجيء ثان فإذا هو يحقق مخافة ، أو ثالث فلا يخرج

محتواه عن أن يكون فكرة ما ، أو رابع يستحضر إحدى الذكريات وحسب . أمهناك إذن أحلام رغبة أخرى عدا هذا الحلم ، أم لعله لا وجود لأحلام سوى أحلام الرغبة ؟ إن من السهل أن نتبين أن تحقيق الرغبة كثيرا ما يرد في الأحلام سافرا غير خاف ، حتى أن المرء ليعجب لأن لغة الأحلام لم تفهم منذ زمن طويل . إليك مثلا على ذلك أستطيع إحدائه كلما شئت ، كأنما كان ذلك بالتجريب : إذا أكلت في الليل أنشوجة أو زيتونا أو غيرها من الأطعمة الشديدة الملوحة ، أحسست في الليل العطش وأيقظني هذا الإحساس . ولكن هذه اليقظة تجيء دائما في أعقاب حلم لا يختلف محتواه ، ومحتواه أني أشرب ، أشرب جرعات كبيرة من الماء ، والماء حلو المذاق كما يحلو للسلسيل والحلق جاف . عندئذ أستيقظ وأراني حقيقة مسوقا إلى تلمس الماء . فالمناسبة الداعية إلى هذا الحلم غير المعقد هي العطش الذي أحسه حين أستيقظ ، ومن هذا الإحساس تنبعث الرغبة في الارتواء ، وهذه الرغبة يصورها الحلم متحققة . وهو إذ يفعل يؤدي وظيفة أحذرهما على الفور : فأنا أنام نوما عميقا ولم آلف أن توقظني حاجة من حاجات الجسد ، فلو قد أفلحت في أن أسكن عطشي بحلم أراني فيه شاربيا ، لأغنانني ذلك عن الاستيقاظ لإرضاء لهذا العطش ؛ فهذا الحلم حلم أخذ بالتي هي أسهل : لقد حل الحلم محل العمل - كما يقع أيضاً في غير ذلك من مواقف الحياة . ومن سوء الحظ أن الحاجة إلى الماء إرواء لعطشي لا يمكن إشباعها بحلم مثل ظمأى إلى الثأر من صديقي أوتو ومن الدكتور م . ولكن حسن القصد في الحالين واحد . وحدث منذ وقت غير بعيد أن اتخذ هذا الحلم نفسه صورة مختلفة بعض الاختلاف . فقد أدركني العطش قبيل النوم فأفرغت في جوفي كوبا من الماء أضعه على منضدة صغيرة بجوار سريري ، ولكن العطش عاودني في خلال الليل بعد ذلك بساعات واستتبع ما يستتبع من إزعاج ، فكان عليّ إن أردت لغتي ارتواء أن أنهض باحثا عن الكوب الموضوع على مائدة زوجي . وعلى ذلك أتاني حلم مناسب للمقام ، فرأيت زوجي تقدم إلى وعاء به شراب ، وكان الوعاء جرة خزف إترورية^(١) من قبيل ما يحفظ فيه رماد الموتى بعد إحراقهم ، كنت قد جلبتها معي من رحلة إلى إيطاليا ثم أهديتها إذ ذاك إلى البعض . ولكن الماء كان مالح المذاق (وجلي أن ذلك من أثر الرماد) ، حتى

(١) [نسبة إلى إتروريا ، وهي المنطقة من إيطاليا المسماة اليوم توسكانيا ، وبها استقر قوم يفلب أنهم من أصل آري وأنهم وفدوا إليها من آسيا الصغرى ، وكانت لهم حضارة رفيعة منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد .]

أننى استيقظت . ولا يفوتنا أن نلاحظ كيف سهل هذا الحلم الأمور على أوفق وجه . ففرضه الأوحده هو أن يحقق رغبة ، ومن ثم جاز له أن يكون أنايا مطلق الأناية . والحق أن حب السهولة لا يستقيم ومراعاة الآخرين . والراجع أن إدخال الحجره الخزفية فى الحلم كان يحقق أيضا رغبة : فأنا أسف على أن هذا الإناء قد خرج من حوزتى - كما يخرج من متناول الإناء الموضوع على مائدة زوجى . والحجره برمادها تتسق أيضا وإحساس المذاق المالح الذى كان آخذاً إذ ذاك فى الاشتداد والذى أعلم أنه موقظى لا محالة (١) .

وكانت أحلام السهولة هذه تقع لى كثيرا فى شبابى ؛ فقد كان من عادى دائماً أن أعمل حتى ساعة متأخرة من الليل وكان الاستيقاظ المبكر أمراً عسيراً على دائماً ، فكنت أحلم حينئذ أننى قد غادرت الفراش ، واقف بجوار الحوض أغتسل . وغنى عن البيان أنه لم يكن فى مستطاعى أن أتمادى فى التغافل عن الواقع إلى غير حد ، ولكننى كنت أظفر فى هذه الأثناء ببرهه من النوم . وحدثنى زميل شاب ، كان يشاركنى هذا الغرام بالنوم على ما يبدو ، عن حلم كسل من هذا القبيل ، اتخذ عنده صورة فريدة فى طرافها . ذلك أن هذا الزميل كان قد طلب إلى السيدة التى يقم بدارها قريبا من المستشفى أن توقظه فى ساعة محددة كل صباح ، وكان ذلك أمراً مشدداً ، ولكن السيدة لم تلبث أن تبين أن تنفيذه لم يكن بالأمر الهين . وفى ذات صباح لاح له النوم فريداً فى حلاوته ، وجاءت السيدة تصيح وهى بالباب : « يا سيد پي استيقظ ، لقد جاء وقت الذهاب إلى المستشفى » ، فكان جوابه حلماً رأى فيه أنه نائم فى إحدى حجرات المستشفى وقد علقت فوق سريره لائحة خط عليها : « پي ه . ، طالب طب ، ٢٢ سنة » فكان أن حدث نفسه - وهو ما زال بحلمه - قائلاً : « لا حاجة بى إلى أن أذهب إلى المستشفى ما دمت هناك » - ثم تقلب فى فراشه ومضى فى نومه . وهكذا اعترف اعترافاً صريحاً بدفاعه إلى الحلم .

(١) عرف فيجانت أيضاً وقوع أحلام العطش هذه ، فهو يقول : (١٨٩٣ ، ٤١) « وهذا الإحساس بالعطش هو الذى يدرك أدق إدراك ، وهو يبعث دائماً على تصور الارتواء . وأما الطريقة التى يصور بها الارتواء فى الحلم ، فتختلف وتتمد صورتها الخاصة من إحدى الذكريات القريبة . ومظاهرة أخرى مطردة الوقوع فى هذا المجال : هى أن فكرة إرواء العطش لا يلبث أن يتلوها الشمور بالخبيبة ؛ لقلة غناء هذا الارتواء الوهمى . « إلا أن فيجانت يغفل المغزى الكلى الذى تتضمنه استجابة الحلم إلى المنبه . - هذا ، وإذا كان بعض الناس قد يدركهم العطش فى أثناء الليل فيستيقظون دون أن يحلموا ، فذلك ليس اعتراضاً على تجربتى ، وإنما هو دليل على أن هؤلاء الناس أربأ نوماً من غيرهم . - أنظر سفر إشمياء ، الإصحاح ٢٩ ، ٨ : « ويكون كما يحلم الجائع أنه يأكل ثم يستيقظ وإذا نفسه فارغة . وكما يحلم العطشان أنه يشرب ثم يستيقظ وإذا هو رازح ونفسه مشبعة . »

وها هو ذا حلم آخر فيه كذلك أحدث المنبه فعله في خلال النوم نفسه . فقد أمر الأطباء إحدى مريضاتي - وكانت قد أجريت لها عملية في الفك لم تصب النجاح المأمول - بأن تضع على خدها المصاب جهازا مبردا ، ليلا ونهارا . ولكنها كانت لا تكاد تنام حتى تسارع إلى إلقائه . وسئلت ذات يوم أن أعنفها بعض التعنيف على مسلكها هذا ؛ فقد رمت جهازها مرة أخرى . ولكنها أجابتنى قائلة : « الحق أنى لم أكن أملك حيلة فيما وقع هذه المرة ، وإنما المستولم حلم حلمته في الليل . فقد رأيتنى في شرفة بدار الأوبرا وقد أخذ المشهد بلبي ، ولكن الهر كارول ماير كان راقدا في المستشفى وهو يشكو ألما في فكه مر الشكوى ، فقلت لنفسى : لا حاجة بي إذن إلى هذا الجهاز ما دمت أنا لا أعانى ألما . وكان أنى رميت الجهاز . » إن حلم هذه الشاكية المسكينة يبدو تصويرا أميناً لعبارة شائعة ترد على اللسان عفوا حين يرى الإنسان نفسه في موقف لا يحسد عليه : « الحق أنى كنت أستطيع أن أتصور ما هو ألطف من ذلك » ؛ فالحلم وإنما يصور هذا الألف ، فقد كان الهر كارول ماير الذى حولت إليه الحاملة أوجاعها آخر شاب يمكن أن يتجه إليه تفكيرها بين من تعرف .

وبمثل هذه السهولة نستطيع أن نتبين تحقيق الرغبة في أحلام أخرى جمعتها من أناس أحماء . فقد قال لى يوما صديق كان يعرف نظرياتي في الحلم وتحدث بها إلى زوجه : « سألتنى زوجى أن أخبرك أنها حلمت بالأمس أن الحيض قد جاءها . لعلك تعلم ما معنى ذلك . » ويقينا أنى أعلمه : فإن تحلم هذه الزوج الشابة بأن الحيض قد جاءها ، معناه أن الحيض قد انقطع . وأستطيع أن أتصور أنها كانت تود لو استمتعت بحريتها بعضا آخر من الوقت قبل أن تبدأ تكاليف الأمومة : إن الحلم كان طريقة ماهرة في الإنباء بحملها الأول . وكتب إلى صديق آخر يقول : إن زوجه قد حلمت منذ قريب بأنها تلحظ بقعا من اللبن على صدرها . وهذه أيضا بشرى تنبئ بالحمل ولكنه ليس الحمل الأول : فالأم الشابة تأمل أن تدر لرضيعها الثانى أكثر مما أدت لرضيعها الأول .

وظلت سيدة شابة أسابيع طوالا بمعزل عن المجتمع ؛ لأنها كانت تتعهد ابنها المريض مرضا معديا . فلما كتب له الشفاء ، حلمت بمجلس التقت فيه بالفونس دوديه وبورجيه ومارسيل بريفو وغيرهم من الكتاب وكان لطف الجميع تجاهها غاية ، وسروا عنها أجمل تسرية . وكانت للمؤلفين المجتمعين ملامح كالتى لهم في صورهم ، إلا مارسيل بريفو

الذى لم تكن قد رأت صورته؛ فقد كان يشبه . . . موظف وزارة الصحة الذى بخر غرفة المريض يوم أمس وكان أول زائر يزورها منذ وقت طويل . وهكذا يبدو أن فى الإمكان أن نترجم هذا الحلم ترجمة وافية : لقد آن أوان الانصراف إلى شيء أكثر تسلية من هذا التمريض الأبدى .

لعل هذه المقتطفات كافية أن ترينا أننا نجد فى أحيان كثيرة جدا وبين ملابس على أشد ما يكون اختلافا - أحلاما لا تترك مجالاً لفهمها بغير كونها تحقق رغبة ، أحلاما يسفر محتواها عن فحواها فى غير خفاء . إنها فى الأغلب أحلام قصيرة غير معقدة تباين التأليف الخلمية المشوشة المسهبة التى جذبت بنوع خاص انتباه المؤلفين مبينة حسنة الوقع . بيد أن جهدنا لن يضيع مع ذلك هباء إذا نحن وقفنا عند هذه الأحلام غير المعقدة بعض الوقت . ولنا أن نتوقع أبسط صور الحلم عند الأطفال ؛ فلا شك فى أن نتائج نشاطهم النفسى أقل تعقيدا من نظيراتها عند الراشدين . وأعتقد أن من المقدر على علم نفس الطفل أن يسدى إلى علم نفس الراشدين خدمات نافعة كالتى أسدتها دراسة بنية الحيوانات السفلى وتطورها إلى دراسة بنية الحيوانات الأعلى مراتب . ولكن الجهود التى بذلت عن قصد من أجل الانتفاع بعلم نفس الأطفال لهذا الغرض لا تزال قليلة حتى اليوم .

إن أحلام الأطفال لا تخرج فى أحيان كثيرة^(١) عن أن تكون تحقيق رغبات ، وهى تخلو عندئذ^(٢) من القيمة ، بالقياس إلى أحلام الراشدين ؛ لأنها لا تثير ألباناً تنتظر الحل . ولكنها بالطبع تظل ذات قيمة لا تقدر من أجل البرهنة على أن الأحلام تعنى فى جوهرها الدفين تحقيق رغبة . ولقد أمكننى أن أجمع بضعة أمثلة عليها ، من مادة زودنى بها أطفالى نفسى .

إذ أشكر لرحلة قمنا بها فى صيف عام ١٨٩٦ من أوسى إلى قرية هالشتات الخميلة^(٣) أن كانت سبباً فى حلمين أنت أولهما ابنتى ، وكانت تبلغ من العمر إذ ذاك ثمانية أعوام

(١) [فى أحيان كثيرة " أضيفت فى طبعة ١٩١١ . ولفرويد ملاحظة على هذا التقييد يقول فيها (الكتابات المجمع ، الجزء الثالث ، ١٩٢٥ ، ص ١٢) : " لقد بينت الخبرة أن الأحلام المشوشة التى تحتاج إلى تفسير تقع أيضاً للأطفال الذين يبلغون الرابعة أو الخامسة . وذلك ما يتفق تمام الاتفاق وآراءنا النظرية عن الشروط التى تحتم تشويه الأحلام . "]

(٢) [قبل عام ١٩١١ كنا نقرأ : " من أجل ذلك " بدلا من " عندئذ " .]

(٣) [فى منطقة سالسكامرجوت بأعلى النمسا .]

ونصف العام، وأتى ثانيهما ولد تجاوز الخامسة بثلاثة شهور . ومن اللازم أن أقول على سبيل التمهيد : إننا كنا نقضى ذلك الصيف على تل قريب من أوسى ، كنا نستمتع منه إذا صحا الجو بمنظر بديع من مناظر جبل داخشتاين . وكان من الميسور إذا استعنا بمنظار مقرب أن نتبين منه في وضوح كوخ^(١) سيمونى . ولقد حاول الأطفال رؤيته من خلال المنظار تكررا ، ولست أعلم مدى نجاحهم في ذلك . وكنت قد ذكرت للأطفال قبل الرحلة أن هالشتات تقع على سفح الداخشتاين ، وكانوا هم ينتظرون اليوم الموعود في فرح شديد . ومن هالشتات أخذنا نصعد في [وادى] اشرنثال الذى خلب الأطفال بمشاهدة المتقلبة ، إلا أن واحدا منهم - وهو الولد الذى فى الخامسة - أخذ يتذمر ؛ فكلما لاح للنظر جبل جديد جعل يسأل : أهذا هو الداخشتاين ؟ فأجيبه : كلا ، إنه أحد التلال التى على سفحه فقط . وبعد أن كرر سؤاله هذا بضع مرات ، التزم الصمت التزاما تاما وأبى مصاحبتنا فى المرتقى الذى يقود إلى مسقط المياه . وظننت أنه كان تعباً ، ولكنه أقبل فى الصباح وعلامات البشر بادية عليه ، وقال : « لقد حلمت فى الليلة الماضية أننا كنا فى كوخ سيمونى . » وإلى لأفهمه الآن : فهو قد توقع حين تحدثت عن الداخشتاين أن يصعد الجبل فى أثناء رحلتنا إلى هالشتات وأن يرى عن كثب كوخ سيمونى الذى طالما كان موضع حديثنا ونحن ننظر إليه بالمنظار . فلما رأى أن عليه أن يقنع بتلال على السفح وبمسقط مياه ، خاب ظنه وصار صموتا . ولكن الحلم عوضه عما فاته . ولقد حاولت أن أعرف بعض تفاصيل الحلم ، ولكننى لم أظفر منه بالشيء الكثير ؛ فكل ما استطاع قوله هو : « إن المرء يصعد ست ساعات قبل أن يصل إلى هناك . » وهو - حتى فى هذا القليل - إنما يردد ما سمع .

كذلك الفتاة البالغة من العمر ثمانى سنوات ونصف السنة ، فقد تركت هذه الرحلة أيضا فى نفسها رغبات لزم أن يرضيها حلم . فقد أخذنا معنا إلى هالستات ابن الحيران ، وكان فتى فى الثانية عشرة من عمره كله فروسية ، تدل الدلائل على أنه قد نزل من الآنسة الصغيرة منزل القبول . فى الصباح التالى روت لى الفتاة هذا الحلم : « تصور أنى حلمت أن إميل واحد منا ، يناديكما «ماما» و «بابا» وينام معنا فى الحجرة الكبيرة مثل إخوتى

(١) [Hützel] - يطلق على بيوت صغيرة من الخشب تقام فى أنحاء متفرقة من الجبل ويأوى إليها الناس ليلوذوا بها من الخطر ، أو ليستريحوا . ويطلق على كل منها اسم الجهة المقام فيها .

الصبية . ثم جاءت ماما وألقت بملء يديها تحت أسرتنا ألواحاً كبيرة من الشوكولاته لفت في ورق أزرق وأخضر . « فلما سمعها إخوانها الذين لم يرثوا القدرة على تفسير الأحلام - كما نرى - صاحوا مثل المؤلفين الذين نعرف : هذا الحلم هراء . بيد أن الفتاة نفسها دافعت عن جزء واحد من الحلم على الأقل ، ومن المفيد لنظرية الأعصاب أن نعلم أى جزء هو ، قالت : « أن يكون إميل واحدا منا ، هذا هراء ، وأما حكاية الشوكولاته فلا . » وكان هذا الجزء على التحديد هو الجزء الذى خفى على ، ولكن أم الأولاد أتتني ببيانه : ذلك أن الأطفال قد توقفوا وهم في طريقهم من المحطة إلى المنزل أمام موزع آلى بغية الحصول على ألواح من الشوكولاته لفت في ورق معدنى لامع من هذا النوع عينه ، كانوا يعلمون من سابق خبرتهم أن الآلة تخرجها . غير أن أهمهم رأت بحق أن اليوم قد حقق لهم من رغباتهم الكفاية ، وبذلك تركت للحلم تحقيق هذه الرغبة الأخيرة . وكان هذا المشهد الصغير قد فاتني . وأما جزء الحلم الذى تخاذلت ابنتى عن الدفاع عنه ، فقد فهمته على الفور : فلقد سمعت بأذى ضيفنا المهذب وهو يطلب من الأولاد أن يتظروا « بابا » و « ماما » ، فجعل الحلم من هذه القرابة الموقوتة تبيناً مستديماً . فعاطفة الفتاة لم تكن تعرف بعد شكلاً آخر من أشكال الحياة المشتركة غير الذى صورته الحلم مستوحياً علاقتها بإخوانها . وأما كون ألواح الشوكولاته قد ربيت تحت الأسرة ، فهذا بالطبع ما لا يتسنى توضيحه إلا باستفسار الطفلة .

وحدثني صديق بحلم يشبه حلم ابني تمام الشبه : كان الحلم لفتاة في الثامنة . فقد خرج أبوها وفي صحبته جماعة من الأطفال في نزهة إلى دورنباخ وفي نيتهم أن يزورا كوخ روهـرر . ولكن الوقت تأخر بهم ، فقفـل الأب بعد أن وعد الأطفال بأن يعرضهم عما فاتهم في مرة أخرى . وبينما هم عائدون مروا بسارية تشير إلى الطريق المؤدى إلى الضيعة ، فسأله الأطفال أن يأخذهم إليها ، ولكن كان عليهم في هذه المرة أيضاً ، ولذات السبب ، أن يعزوا أنفسهم بوعـد الزيارة في يوم آخر . وفي صباح اليوم التالى ذهبت الفتاة ذات الأعوام الثمانية إلى والدها ، تقول له وعليها علامـم الرضا : « بابا ، لقد رأيت الليلة الماضية في الحلم أنك كنت معنا في كوخ روهـرر وفي الضيعة . » وهكذا سبق صبرها الناقد إلى تحقيق ما وعد به أبوها .

وها هو ذا حلم آخر لا يقل صراحة أوحاه جمال الطبيعة في آوسى إلى ابنة أخرى

كانت تبلغ من العمر إذ ذاك ثلاث سنوات وثلاثة شهور . فهي كانت عبرت البحيرة للمرة الأولى ، وبدت لها الرحلة أقصر مما كان ينبغي ، فأبت أن تغادر القارب حين رسا وبكت مر البكاء ، فلما جاء الصباح قالت لنا : « لقد ركبت البحيرة في الليلة الماضية . » نرجو أن تكون رحلة الحلم هذه قد دامت وقتنا أبعث على رضاها .

وأما ابني الأكبر - وكان عمره ثماني سنوات - فكان قد سبق إلى الحلم بتحقيق خيالاته ؛ فهو قد رأى نفسه يركب إحدى عربات القتال مع أخيلوس ، وكان ديوميدي سائق العربة . ولا غرو إذا كانت أساطير اليونان التي قرأها في اليوم السابق في كتاب مهدي إلى أخته الكبرى قد ألهمت حماسه .

وإذا جاز أن نلجج الألفاظ التي يتفوه بها الأطفال وهم نيام في عداد الأحلام ، أمكنني أن أسرد في هذا الموضع حلما لحالم بين أحدث من في مجموعتي . فقد أصيبت ابنتي الصغرى - وكان عمرها تسعة عشر شهرا - بنوبة من القيء ذات صباح ، فمنعت عن الأكل طيلة النهار . فلما كان الليل الذي أعقب ذلك النهار الخائف سمعتها تتنادى وهي مهتاجة في نومها : « أنا ف (ر) ويد ، ف (ر) يز ، ف (ر) يز ؛ (ر) ي ، أو مليت ، ك (ر) يم ! » وهي إذ ن تستخدم اسمها نفسها للدلالة على فعل الملك - كما دعتها إذ ذاك - كما أنها قد ضمنت قائمة الطعام بالطبع كل ما لاح لها أنه يؤلف وجبة شهية . وأما ذكرها صنفين من الفريز فكان إظهارا لاحتجاجها على القواعد الصحية المرعية في المنزل ، وهو احتجاج بعثت عليه ملابسة لم تغب على التأكيد عن ملاحظتها : ذلك أن المربية كانت قد عزت توعكها إلى تخمة أصابها من جراء الإفراط في أكل الفريز . وهكذا كانت الطفلة تتأثر من هذا الحكم الذي لم يصادف هوى من نفسها (١) .

فإذا كنا نشهد بسعادة الطفولة لبراءتها من الرغائب الجنسية فلا ننسى أى مصدر خصيب للخيبة وللنزول المكره - ومن ثم أى منبه إلى الحلم - تتضمنه ثمانية العزيزين

(١) واتفق بعد ذلك بقليل أن حقق الحلم الجدة ما قد حققه الطفلة الصغيرة - ويبلغ عمرهما معا شيئا يقرب من السبعين سنة . فقد أجبرت الجدة على التزام الحمية يوما لاضطراب راجع إلى كلية ساجحة ، فكان أن حلمت في الليلة التالية - وقد حملها حلمها من غير شك إلى أيام شبابها الهيجبة - بأنها قد دعيت إلى تناول كلتا الوجبتين الرئيسيتين في الخارج ، وفي كل وجبة كانت تقدم إليها أشهى الأطعمة .

الحويتين الكبيرين^(١) . وها هو ذا مثال آخر على ذلك : وكلت إلى ابن أخى - وكان له من العمر اثنان وعشرون شهرا - مهمة القيام بتهنئتي بعيد ميلادى مع تقديم سلة من الكريز الذى لا تُرى في هذا الوقت من العام سوى بواكيره هديةً إلى . ويبدو أن المهمة كانت شاقّة عليه ؛ لأنه جعل يردد جملة : « فيها ك (ر) يز » دون أن يتيسر إقناعه بترك السلة تخرج من يديه . إلا أنه عرف على أبة حال كيف يعرض ما فاتته . فقد كان من عادته حتى ذلك الوقت أن يعلن إلى أمه في كل صباح أنه قد حلم « بالضابط الأبيض » أى بضابط من ضباط الحرس الإمبراطورى كان قد أعجب به يوماً في الطريق إذ شهده بعبأته البيضاء - ولكنه في صبيحة اليوم الذى أعقب تلك التضحية من جانبه ، نهض فرحاً ليعلن نبأ لا يمكن أن يكون له مأتى غير الحلم : « ه (ر) مان أكل الك (ر) يز كله ! »^(٢) .

(١) [١٩١١ :] هذا ويعلمنا النظر الأدق إلى الحياة النفسية للأطفال أن القوى الغريزية الجنسية تشارك - وإن يكن على صورة طفلية - بنصيب كبير ، ظللنا نفعل أمره زمناً طويلاً ، في النشاط النفسى للأطفال . كما نخرج أيضاً من مثل هذا النظر بأسباب تدعونا إلى التشكك بعض الشيء في سعادة الطفولة كما يتصورها الراشدون لأنفسهم من بعد . أنظر كتابى : « ثلاث مقالات في نظرية الحياة الجنسية » (١٩٠٥ د) .

(٢) [١٩١١ :] يجب أن نذكر أن الأطفال سريعاً ما يأخذون في الحلم بأحلام أكثر تعقيداً وأقل شفافية ، بينما قد يحلم الراشدون في بعض الملابس بأحلام ذات طابع خال من التعقيد ، طفلى . ويجد القارئ أمثلة على ما قد تزخر به أحلام الأطفال المتراوحة أعمارهم بين الرابعة والخامسة من المادة غير المتوقعة في مؤلفى : « تحليل مخافة شاذة عند غلام في الخامسة » (١٩٠٩ ب) ، و « يونج (١٩٠٩ أ) . وأرجع أيضاً فيما يتصل بالتفسيرات التحليلية لأحلام الأطفال إلى هوج - هلموت وپوتنام وراثته وشيپلراين وتاوسك . وتجد أحلاماً أخرى عند بيانكبرى وبوزمان ودوليا ، وبخاصة عند فيجيام الذى ألح على نزوع هذه الأحلام إلى تحقيق الرغبة . ويبدو من جهة أخرى إن الأحلام ذات الطابع الطفلى يكثر ورودها عند الراشدين إذا وجدوا أنفسهم في ملابس خارجية لم يأفوها مثال ذلك ما يتحدث به أوتو نوردنسكولد في كتابه « القطب الجنوبي » (الجزء الأول ، ص ٣٣٦) عن أعضاء بعثته الذين قضوا معه فصل الشتاء هناك ، يقول : « وكانت أحلامنا أشد ما تكون دلالة على اتجاهات أفكارنا الدفينة ، فهم لم تكن في يوم من الأيام أشد وضوحاً أو أكثر عدداً . بل حتى أولئك الرفاق الذين لم يكونوا يحملون إلا زادراً ، قد صاروا يصيحبون وفي عجبهم القصص الطوال يقصونها حين نتبادل آخر خبراتنا في عالم الخيال . وكانت هذه الأحلام جميعها تتعلق بالعالم الخارجى الذى صار الآن بعيداً عنا أيما بعد ، وإن جاءت أيضاً في كثير من الأحيان متكيفة بعض التكيف مع ملابس حياتنا الحاضرة . ومن أكثر هذه الأحلام دلالة على ذلك ، حلم خيل فيه إلى أحد الرفاق أنه قد عاد إلى مقعد الدراسة ، وكان عليه في الحلم أن يسلم كلاب بحر مصفرة صنعت خصيصاً لأغراض تعليمية . وكان الطعام والشراب هما المحور الذى تدور حوله معظم أحلامنا : فكان أحداً - وكان ذا موهبة متميزة في الاختلاف ليلا إلى موائد المشاء الفاخرة - يفيض حبوراً إذا هو استطاع أن يثبتنا في الصباح بأنه « قد ظفر بعشاء من ثلاثة أصناف » . هذا بينما كان يحلم آخر بالطباقي ، بجبال منه ، وثالث بسفينة تتجه نحواً وقد انبسط من حوها العباب تمخره مخرأ . ثم حلم آخر جدير بالذكر : يقبل ساعى البريد ويفرق في شرح السبب الذى من أجله أقبل متأخراً ؛ فقد حمل البريد إلى عنوان غير العنوان الصحيح ، ولم يستطع استرجاعه

أما بم يحلم الحيوان ، فهذا ما لا أعلم عنه شيئاً . ولكن هناك مثلاً سائراً - أدين بمعرفته لأحد تلاميذي - يدعى معرفة الجواب : يسأل المثل : بم تحلم الأوزة ؟ ثم يجيب : بالذرة^(١) . إن النظرية القائلة : « إن الأحلام تحقيق رغبة » محتواة جميعها في هاتين الجملتين^(٢) .

وهكذا نرى أنه كان في مقدورنا أن نصل إلى المعنى الخبيء للحلم من طريق أقصر لو أننا استرشدنا العرف اللغوي . صحيح إن اللغة الدارجة تتحدث عن الأحلام أحياناً حديث الزراية . ونحن نقول هذه اللغة : « الأحلام أضغاث » فكأنها تبغى بقولها هذا أن تؤيد الحكم العلمي . ومع ذلك فالأحلام في اللغة الدارجة هي قبل كل شيء المحققات المباركات للريجات . فنحن نصيح إذ يستخفنا الطرب لأن الواقع قد جاوز ما كنا نتوقه : ذلك ما لم أكن أتخيله ولو في أشد أحلامي جرأة .

إلا بالجهد الجهد . وكنا نحلم على التأكيد بأحلام أخرى أشد بعد استحالة من هذا . ولكن فقر الخيلة في هذه الأحلام جميعاً - ما أتاني نفسي وما سمعته عن غيره - كان عجباً أكبر العجب . ولو قد سجلت كل هذه الأحلام ، لكان من المؤكد أن تكون لها قيمة سيكولوجية كبرى . ومن السهل أن نفهم بعد ذلك كيف كنا نتوق إلى النوم ؛ فلم يكن غير النوم ليحبيب كلامنا إلى ما كانت نفسه تتعرق شوقاً إليه . " ويقول دوپول كذلك (١٨٨٥ ، ٢٣١) : " إن مونجو پارك حين أشرف على الموت ظناً في إحدى رحلاته الإفريقية كان لا ينقطع عن الحلم بمراعي وطنه ووديانه التي تجري فيها المياه . وكذلك تزفك حين عذبه الجوع وهو محبب في قلعة ماجد بورج ؛ فلما كان يرى نفسه محاطاً بأفخر صنوف الطعام . أما جورج پاك - وكان عضواً في بثثة فرانكلين الأولى - فكان حين أشرف على الموت جوعاً لا يكف عن حلم واحد لم يتغير : الطعام الكثير . "

(١) وهناك مثل هنجاري استشهد به فرنسي ، يزيد على ذلك فيقول : " يحلم الخنزير بشر البلوط وتحلم الأوزة بالذرة " . ويقول مثل يهودي : " بم تحلم الفرخة ؟ بالقمح " (برنشتاين ، ١٩٠٨ ، ١١٦) .

(٢) لست أفكر في القول : إن إرجاع الحلم إلى الرغبة لم يحظر قط لمؤلف من قبل (أنظر مطلع الفصل القادم) ففي مكنة من يعلق أهمية ما على مثل هذه الحدوس المبكرة أن يرجع إلى الأزمنة القديمة وأن يستشهد بهيروفيلوس - وهو طبيب عاش في أيام بطليموس الأول . فهذا الرجل - على ما يروي بوكسنشوتس (١٨٦٨ ، ٣٣) - قد فرق بين ثلاثة أنواع من الأحلام : أحلام ترسلها الآلهة ، أحلام طبيعية تنشأ حين تتصور النفس ما فيه نفعها وما سوف يقع ، أحلام مختلطة تنشأ نشوياً تلقائياً باجتماع الصور بعضها إلى بعض وذلك حين نرى ما نرغب فيه . ولقد نبه شاركة إلى حلم في مجموعة شررر يصفه المؤلف نفسه بأنه تحقيق رغبة ، يقول شررر (١٨٦١ ، ٢٣٩) : " إن الحلم قد حقق الرغبة التي أضمرتها الحاملة في اليقظة ، لا شيء سوى أن هذه الرغبة كانت تحرك نفسها تحريكاً شديداً . " ويدرج شررر هذا الحلم في قائمة " الأحلام المزاجية " إلى جانب " أحلام الشبق عند الذكور والإناث " و " أحلام المزاج المعتل " . ومن هذا نرى أن شررر لا يفكر أقل تفكير في أن ينسب إلى الريجات أهمية أخرى في إثارة الحلم غير التي لغيرها من سائر حالات اليقظة ، وأقل من ذلك أن يفكر في الربط بين الرغبة وجوهر الحلم .